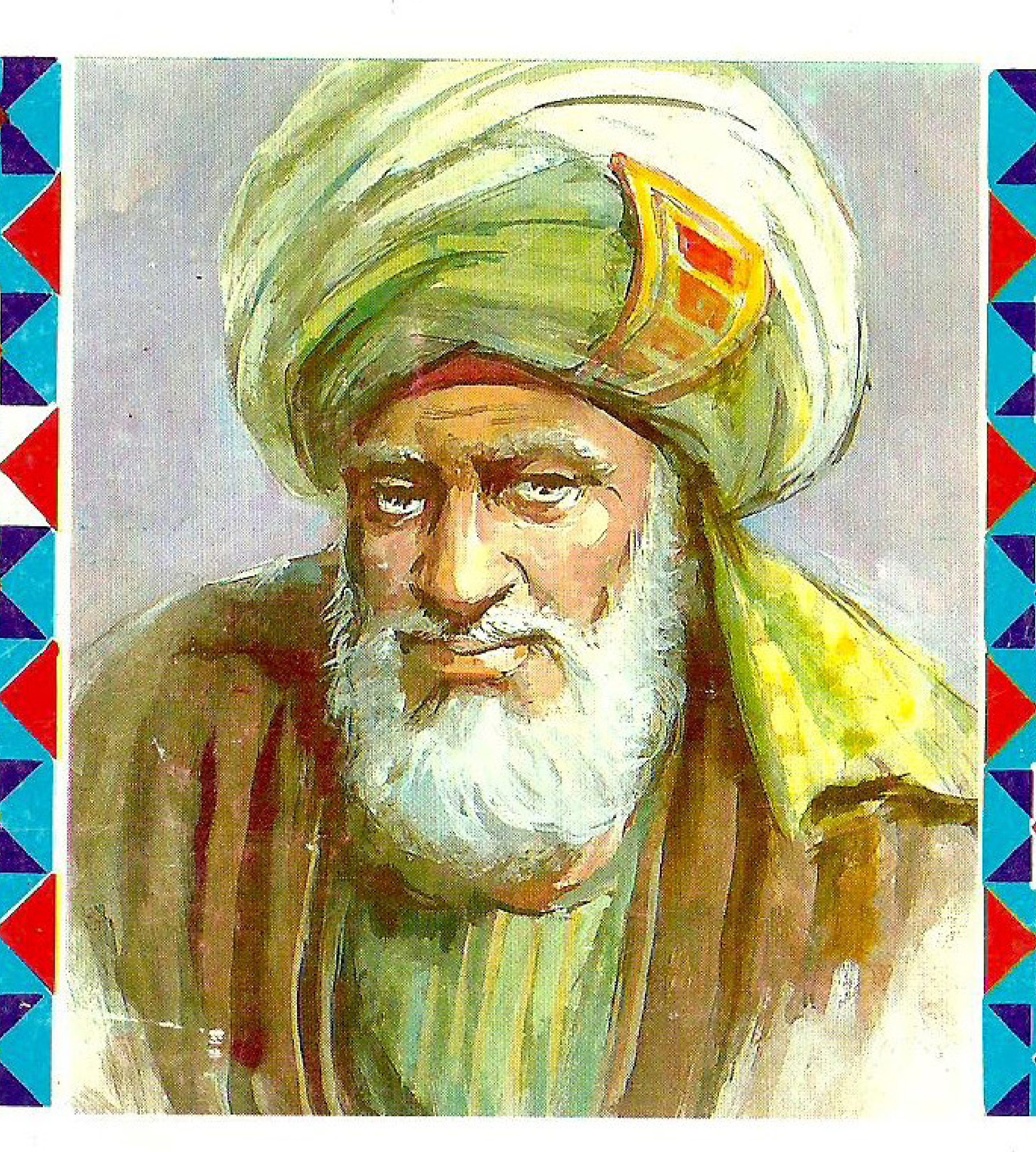


٢٩

علماء العرب

الخليل

أبو المعاجم العربيّة



تأليف : سليمان فياض

رسوم : اسماعيل دياب

الأهرام مركز الأهرام للترجمة والنشر

١ -

علماء
العرب
(٢٩)

الخليل

أبو المعاجم العربيّة



تأليف : سليمان فياض
رسوم : إسماعيل دياب

الطبعة الأولى
١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة
تليفون ٥٧٨٦٠٨٣ - فاكس ٥٧٨٦٨٣٣



فى مسجد البصرة

ذاتَ صباحٍ ، دعا أحمدُ ابنه الخليلَ إليه ، وقال له :

– من اليومِ يا بنىّ ، ستبدأُ حِفظَ القرآنِ الكريمِ .

وتبعَ الخليلُ أباه ، وسارَ بجانبِه فى شوارعِ البصرة ، حتى دخلَا معًا مسجِدَ البصرةِ الجامعَ الكبيرَ . وتوقفَ أحمدُ عند حلقةٍ بها صبيةٌ ، يُحيطونَ بقارىءٍ معلمٍ للقرآنِ ، وقال له :

– أيُّها الشيخُ . هذا ابنِى الخليلُ ، جئتُ به إليكَ ، ليحفَظَ القرآنَ الكريمَ على يديْك .

وتركَ أحمدُ ابنَه الخليلَ مُغادرًا المسجدَ ، وكانَ الوقت ضُحًى . وجلَس الخليلُ بينَ صبيةِ البصرةِ . كان يعرفُهم بالاسم واحدًا واحدًا ، فطالما لعب معهم فى ساعاتِ النهارِ ، فى حارات البصرةِ ، وشوارِعها ، وتحتَ أشجارِ النخيلِ المحيطةِ بالبصرةِ ، وطالما سبحَ معهم فى جداولِ البصرةِ ، ونُهيْراتها ، واستظلَّ وإيّاهُم بظلالِ الأشجارِ فى حدائِقها ، ولسوفَ يعاوِدُ اللعبَ معهم عصرَ كلِّ يوم ، وإثرَ صلاةِ المغرب .

وراحَ الخليلُ يتأمَّلُ ما حولَه فى المسجد ، أعمدةَ المسجدِ الرخاميةِ الشامخةِ ، والمحرابَ المهيبَ ، والجوَّ الدينىَّ الساحرَ ، ويرقُبُ من بُعدِ حلْقاتٍ أُخرى للدرسِ بمسجدِ البصرةِ ، وقد تحلَّق (أحاط) طلابُها الأكثرُ سِنّا منه ، حولَ علماءِ لِلّغةِ ، وعلماءٍ فى الدينِ ، وهُم ينصتُون إليهِمْ باهتمامٍ ، ويكتبُون ما يسمعُونه منهم بِحْرصٍ . وفكرَ الخليلُ أنهُ سيصبحُ واحدًا منهم ، حين يتمُّ حفظَه للقرآنِ الكريمِ . وكان الخليلُ قد تعلّم القراءَةَ والكتابةَ ، ومبادِىءَ الحسابِ على يدىْ أبيه .

وانتبهَ الخليلُ على صوتِ معلِّمِ القرآنِ يقولُ له :

– تعالَ يا خليلُ ، واجلسْ بجانبِى .

ونهضَ الخليلُ وجلَس بجانبه ، فقال له معلمُ القرآنِ :

– خُذْ هذا المصحفَ . وحافظْ عليهِ ، فهو مصحفُك من اليومِ .

ثم قالَ له :

– الآن . افتحِ المصحفَ على سورةِ الفاتحةِ ، وأسمعِنى قراءَتك للقرآن .

كانتْ كتابةُ المصحفِ آنذاك ، تُكتبُ بِحبريْن : حبرٌ أسودُ للحروفِ المنقوطةِ ، وغيرِ المنقوطةِ ، وحبرٌ أحمرُ لعلاماتِ التشكيلِ . وكانت هذهِ العلامات : نقطةٌ حمراءُ على يمينِ الحرفِ تُفيدُ الفتحة ، ونقطةٌ حمراءُ على يسارِ الحرفِ تُفيدُ الضمة ، ونقطةٌ حمراءُ أسفلَ الحرفِ تُفيدُ الكسرةِ . وكانَ « أبو الأسْودِ » الدُّؤلِىّ هو الذى وضَعَ نقطًا سوداءَ للحروفِ العربيةِ المنقوطةِ ، ولم تكنْ الكتابةُ العربيةُ بها حروفُ منقوطة قبله ، وابتكرَ نقطاً حمراءَ لتشكيلِ الحروفِ فى الكلماتِ العربيةِ ، فيسر « أبو الأسود » بصنيعِه (عمله) هذا القِراءةَ للقارئينَ ، والكتابةَ للكاتِبين .

وأتمّ الخليلُ قراءةَ الفاتحةِ ، والربعَ الأولَ من سورةِ البقرةِ ، وكان معلمُ القرآنِ يهزُّ رأسَه مع قراءةِ الخليلِ ، راضيًا عن قراءتِه ، وحُسْنِ مخارجِه للحروفِ ، والتزامِه بعلاماتِ التشكيلِ ، وجَوْدة مدّه للحروفِ الممدودة ، وإدغامِه للحروفِ المُدْغمة . وقالَ معلمُ القرآنِ للخليلِ :

– أحسنتَ القراءةَ وترتيلَها يا بُنى . ممن تعلمتَ حسنَ القراءةِ للقرآنِ ؟

فقال له الخليل :

– من أبى يا معلّمى .

فقال مُعَلِّمُ القرآنِ :

– كم تقدّرُ لنفسِك أن تحفظَه من آياتِ القرآنِ يا بُنى ؟

فقال له الخليل :

– سأحفظُ ربْعًا من أرباعِ القرآن فى كل يومٍ ، فأنا سريعُ الحفظِ يا معلّمى . واسْألْ أبِى ؟

فضحك معلمُ القرآن ، وقالَ للخليلِ :

– سنرَى غدا قوةَ حِفظكَ . باركَ اللهُ فيكَ يا بُنى ، للقرآنِ ، وللغةِ القرآنِ .

علمه أنت

عادَ الخليلُ إلى بيتِه إثرَ صلاةِ الظهرِ ، وفى الليلِ جلسَ إلى أبيهِ ، وراحَ يُسْمِعُ له سورةَ الفاتحةَ ، والربعَ الأولَ من سورةِ البقرةِ ، ولم يُخطِىءْ فى قراءتِه فى كلمةٍ أو حرفٍ أو ضبطِ لحرف . وَقبّلَ أحمدُ رأسَ ابنِه سعيدًا به . وراحَ يحدِّثُه عن قومِه من بنى الأزد (قبيلة عربيّة) ودورِهم فى الجهادِ مع الخلفاءِ الراشدين ، وعن الحروبِ الدائرةِ بين المسلمينَ والرومِ ، فى ديارِ البيزنطيين (تركيا الآن) ، والخليلُ ينصتُ إلى حديثِه بشغفٍ (باهتمام) شديدٍ .

وتذكرَ الخليلُ أمْرًا ضحِك له ، فقال لهُ أبوه :

– مِمّ تضحكُ يا بنىّ ؟

فقال له الخليل :

– من صبىٍّ فارسىّ مسلمٍ ، يحفظُ معنا القرآنَ ، ولا يحسنُ نطقَ بعضِ الحروفِ العربية ، ومُعلِّمُ القرآنِ حائرٌ معه ، يكرِّرُ له النطقَ الصحيحَ للحرفِ ، فينطقُه بلكنةٍ أعجميةٍ (فارسية) نَضْحَكُ منها .

فقال له أبوه :

– يا ولدِى . ترفقوا بهِ ، ولا تسخَرُوا منه ، أو تضحكُوا عليه . وعلِّمه أنتَ النطقَ الصحِيحَ لكلّ حرفٍ عربىّ .

فقال لهُ الخليلُ بلهفةٍ :

– كيف ، فأنا حقًّا أشفِقُ عليه ، فهو إنسانٌ مثلنا .

فقال له أبُوه أحمدُ :

– اجعلْهُ ينطقُ أىَّ حرفٍ ساكناً ، وقبلَه همزةٌ مكسورةٌ . هكذا : إقْ . إكْ . إلْ . إغْ . وسوفَ ينطِقُ جميعَ الحروفِ سليمةً ، بهذه الطريقةِ .

ونجحَ الخليلُ فى تعليمِ ذلكَ الصبىِّ النطقَ الصحيحَ للحروفِ العربيةِ ، بطريقةِ أبيهِ ، وسعِدَ معلمُ القرآنِ بنجاحِ الخليلِ . وصارَ الخليلُ ، وذلك الفتى الفارسىُّ صاحبيْن وصديقيْن . وفُتِحتْ له أبوابُ بيوتِ الأُسَرِ الفارسيةِ ، التى أسلَمتْ ، ونزحَتْ (رحلت) عن بلادِها إلى البصرةِ ، لتعيشَ مع عربِ البصرة المسلمينَ ، جنبًا إلى جنْبٍ .

وكانتِ البصرةُ مدينةً عربيةً حديثةً ، أنشأَها العربُ ، بمقابلِ مدينة سيراف الفارسيةِ ، عند ملتقى النهرِ العربى بالخليجِ العربى ، جنوبىّ العراق . وكانت بيوتُ المدينةِ ذاتَ أحجارٍ

بيضاءَ ، لا يزيدُ عمرُها بعدُ عن اثنيْن وتسعين عامًا ، مُنذُ أن أنشأَها القائدُ العربى « عتبة بن غزوان » ، فى العامِ السادسِ عشرَ الهجرىِّ .

سيف وفرس

أتمّ الخليلُ حفظَ القرآنِ الكريمِ فى مائتينِ وأربعينَ يوما ، وأحسنَ ترتيلَه بصوتٍ رخيمٍ (حلو) ، وأقبلَ معلِّمه على بيتِ الخليلِ مع طلابِه الصغار ، مهنئينَ أباه ، بختمِه لكتابِ الله ، وقد أقام أحمدُ لهم وليمةً من الثَّريد بالمرقِ (الفتة) واللحمِ المشوى ، والحَلوى الملوّنة ، وتصدقَ بمالٍ على فقراءِ البصرة ، ابتهاجاً بحفظِ ابنه للقرآنِ الكريمِ . وقالَ معلمُ القرآنِ لوالدِ الخليلِ :

– لم أرَ أحدًا من أبناءِ البصرةِ أحسنَ ذاكرةً ، ولا أكثرَ ذكاءً من ابنكِ الخليلِ . وإنى لأتنبّأُ له بشأنٍ عِلمىّ عظيمٍ ، فى مُقبلِ السِّنين .

وحينَ انتهى فصلُ الصيفِ ، بحرّه الشديدِ الرطْبِ ، على طولِ سواحلِ الخليجِ العربى ، راحَ الخليلُ يتردّد على حلْقاتِ الدرسِ العِلميةِ بمسجدِ البصرةِ ، وقد هجرَ اللعبَ فى النهارِ ، وجِلْساتِ السّمرِ فى الليلِ ، وأقبلَ بعشقٍ (بحبٍّ) على حلْقاتِ



الدرسِ المستديرةِ ، التى تحيطُ بعلماءٍ أساتذةٍ عظامٍ ، يُعرفُون فى أنحاءِ العراقِ باسمِ : المسجديُّون ، وراحَ يستمِعُ إلى دروسِ التفسيرِ والحديثِ ، والنحوِ والشعرِ . وكثيرًا ما كانَ الخليلُ يرَى ، فى مسجدِ البصرة ، صحابةً من أصحابِ رسولِ الله الأحياءِ ، فيتقدَّم إليهم الخليلُ مصافحًا ، ويسألهم فيحدثُونَه وصحبَه من طلابِ العلمِ ، عن الرسولِ ، والخلفاءِ الراشدِين ، وكيف نجحُوا فى توحيدِ العربِ ، ونشْرِ الإسلامِ فى جزيرةِ العربِ ، وفى الشامِ ، ومصرَ ، والعراقَ . وكثيرًا ما كان الخليلُ يرَى معسكراتٍ للجنودِ تُقامُ خارجَ البصرة ، ثم ترحَلُ إلى أقصَى الشرقِ أو أقصَى الشمالِ من بلادِ فارس ، للمشاركةِ فى الفتوحِ والجهادِ ، تحت راياتِ الإسلام ، للخلفاءِ الأمويِّين .

ولم يكدِ الخليلُ يتمُّ دراستَه لعلومِ اللغةِ والدينِ ، وكان قد بلغَ العشرينَ من عمرِه ، حتى جاءَ الخبَرُ إلى أميرِ البصرةِ ، بدعوةِ أهلِ البصرةِ للمشارَكةِ فى دفعِ خطرِ الرّومِ عن ديارِ الشام ، والانضمامِ إلى جُيُوشِ المجاهدِينَ فى الشامِ . وانطلق المنادِى فى أرجَاءِ البصرة ، يدعُو شبابَ البصرةِ للمشارَكةِ فى الجِهادِ .

وأسرعَ الخليلُ بالعودةِ إلى بيتِه ، ورأتْه أمُّه يُخرجُ سيفًا من

سيوفِ أبيهِ من غِمدِه ، وقد راحَ يصقُله ويجلُوه ، على مِسَنٍّ من حجرٍ أملَس ، حتى صارَ حادَّ الشفرةِ .

وقالَ الخليلُ لأبويْهِ :

— سأذهبُ مع شبابِ البصرةِ ، لأجاهدَ فى ثغورِ (بلاد الحدود) الإسلامِ ، مدافعًا عن المسلمِين .

وأعدَّتْ لهُ أمّه زادَه وثيابَه ، وقدّم له أبوه فرسًا من أفراسِ الحرب ، ودعَا له الأبوانِ بالنَّصر ، وبالعودةِ إلى البصرةِ ، سالِمًا وغانِما .

وعجِبَ الأبوانِ من أمرِ الخليلِ ، حين رأياه يحملُ معَه ، وهو فى طريقِه إلى الجهادِ ، كتبًا شتَّى منسوخةً ، من كُتبِ المسائلِ فى النحوِ العربى ، فلم يكن النحوُ قد صارَ علمًا مكتمِلا بعد .

أنا صنع يديك

بعد عامَيْن ، عادَ الخليلُ من الشامِ ، ولم يكدْ يَضعُ عُدّته وسلاحَه ، ويَربطُ عِنان (لجام) فرسِه في وَتدٍ خشبى ، بجدارِ ساحةِ البيت ، حتى أقبلَتْ عليهِ أمُّه معانِقةً ، مهنئةً إيّاه بسلامةِ العودةِ ، وكانتْ تبكِى ، وظنّ الخليلُ أنها تبكِى لِفرحِها بعودتِه ،

لكن شيئًا رابَه (أثار شكّه) فى وجهِها ، فسأَلها عن أبِيه ، فأخبرتْه وهى تبكِى أنهُ قد ودّع الدنيا ، وانتقلَ إلى رحمةِ ربه .

وحزِنَ الخليلُ أيامًا ، لأنه لم يرَ أباه فى عودتِه ، ولم يُتَحْ له أن يودِّعه ، فجلَس حزِيناً أيامًا عديدةً . وذاتَ صباحٍ غادرَ البيتَ ، واتجه إلى مسجدِ البصرةِ ، واختارَ حَلْقةً لدروسِ اللغة ، يتصدرُها العالِمُ « أبو عمرٍو بنُ العلاء » . وراحَ يستمعُ إلى ما يقولُه هذا العالِمُ الجليل ، يسمعُ ولا يسأله ، ويسألهُ أبو عمرو فيلزمُ الخليلُ الصمتَ ولا يُجيب ، حتى ظنّ أبو عمرو أنّ الخليلَ قد صارَ طالبًا محدودَ الذكاءِ ، وأنه قد نسىَ ما علّمه لهُ قبلَ سفرِه للجهادِ ، ولن يكونَ عالمًا من علماءِ النّحو . ورأى الخليلُ ومِيضَ السخريةِ منْه ، والرثاءِ له ، فى عينَى أستاذِه ، ففاجَأه بسؤالٍ فى نحوِ العربيةِ ، تِلْوَ السؤالِ ، ولم يُجِبْ أحدٌ من زملاءِ الدرسِ أبا عمرٍو عنْ أىِّ سؤال ، وراحَ الخليلُ يفاجِىءُ الجميعَ بالأجوبةِ عن كلّ ما سُئِل عنه . ورأى الخليلُ أستاذه وقد كسَا الوجُومُ (الصمت الحزين) وجْهَه ، فالخليلُ قد صارَ أكثر عِلْمًا بالنحوِ منه ، وتلاميذُه قد شهِقُوا إعجابًا بالخليلِ ، وراحُوا يتهامسُون فيما بينهم ، وسمِعَ الخليلُ همسَهم وهم يقولُون :

– صارَ الخليلُ أعلمَ من أستاذِنا بلغةِ العربِ .

وعندئذٍ نهضَ الخليلُ معانقًا أبا عمرٍو بنَ العلاءِ قائلاً له :

– لا زلْتُ تلميذَك يا سيدِى ، وصنْعَ يدَيْك ، وقد واصلتُ تعلُّمى لنحوِ العربية وأنا فى معسكراتِ الجهادِ ، فمعنا ، فى المعسكراتِ ، كان شبابٌ من علماءِ النحوِ بالعراقِ والشّامِ .

لكنَّ ذلكَ الموقِفَ لم يَمُرَّ بسلامٍ . فقد راحَ طلابُ العلمِ ، وأساتذةُ العلمِ ، بمسجدِ البصرةِ ، يتحدثُون ، بينَ النّاس ، أنَّ البصرةَ قد أنجبتْ عالِمًا نابغةً بالنحوِ ، تجاوَز بعلمِه قدْرَ كلِّ علماءِ النحوِ بالبصْرة ، وراحُوا يتوقّعون ، ويُشيعُون ، أن الخليلَ سيناظِرُ أبا عمرٍو بنَ العلاءِ فى النحوِ ، ويتفوقُ عليه فى الجدَلِ والمناقشةِ لمسائلِ النحوِ . بل وراحُوا يُحرِّضُونَ الخليلَ على التقدُّمِ لهذهِ المناظرة ، فى يومٍ مشهودٍ ، حتى يعرفَ الكلُّ فضْلَه ، ويصيرَ من حقه أن يعقدَ لنفسِه بمسجدِ البصرة ، حَلْقةً خاصةً ، لتعليمِ النّحو .

وكانَ ذلكَ الصبىُّ الفارسِىُّ الذى علّمه الخليلُ يومًا نطقَ حروفِ العربية ، قد كبِرَ مثلَه فى العُمر ، وتكنّى بكُنيةِ أبو علِىّ . وراحَ أبو على يحرِّضُه ، ويغرِيه بمناظرةِ أبِى عمرٍو ، فقالَ له الخليلُ ، مشفقًا على نفسِه ، وعلى أستاذِه :

– يا أبا على . إننى أخشَى أَنْ أغلِبَ أستاذِى وشيخِى فى المناظرةِ ، وأن يتملكَنِى الزهْوُ والخُيَلاءُ (الكبرياء) ، فأنْصرِف عن طَلَبِ المزيدِ من العِلْمِ .

فقالَ له أبُو علىٍّ :

– يا خليلُ . لا تخَش شيئًا من الغرورِ . فالتواضعُ طبيعةٌ (خلق أصيل) فِيك .

فقالَ له الخليل :

– لا . ذلِكَ أمرٌ لنْ يكونَ .

فضحِكَ أبُو علِىّ ، وقالَ له :

– لا فِرارَ لكَ الآن . فقد قرَّرنَا ، نحنُ الطلابُ ، أن تناظِرَ أبَا العلاءِ غدًا . وقد عرَف الناسُ الخبرَ . ولسوفَ يملأُون مسجِدَ البصرة ، عصْرَ غد . وإذا لم تحضُرْ فلسوفَ يقولُ الكلُّ عنك : إنكَ جبانٌ ، وقليلُ العِلمِ .

التلميذ والأستاذ

فى وقْتِ العصرِ ، وإثْرَ صلاةِ العصرِ ، كان المسجدُ ممتلئًا بالناسِ ، كما قالَ أبُو علىّ ، وكانُوا متحلقَين فى دوائرَ حول

حلقةِ درسِ أبى عمرو بنِ العلاء ، وقد جلس أبُو عمرٍو غيرَ هيّابٍ فى صدَارةِ حلْقتِه ، يتحدّث فى النحوِ . وكانَ الخليلُ جالسًا يستمعُ إليه ، لا يسْألُه ، ولا يعارِضُه ، إلى أن قرُبَ مَوعدُ صلاةِ المغرب ، وعندئذ ختَمَ أبُو عمرٍو درْسَه ، وقرأَ الفاتحَةَ فى الختامِ ، وعيناه تنظُرانِ إلى الخليلِ فى امْتِنانٍ (عرفان بالجميل) والناسُ ينظرُون إلى الخليلِ مبتسمينَ ومشفقين . وفى وجهِ صديقهِ أبى على غضبٌ مكتومٌ ، لأنّ الخَليل ظل يسمعُ صامتًا ، لا يسأَلُ ، ولا يعارضُ ، ولا يناقشُ أو يجادل .

وحينَ انفردَ المجلسُ بالصديقين ، وقد خَلا المسجدُ من حولِهما إثرَ صلاةِ المغربِ ، قال أبُو علىّ للخليلِ :

– يا صاحبِى . إنّكَ إمّا أن تكونَ جبانا ، وإما أنْ تكونَ معتُوهًا (ناقص العقل) . لِمَ لَمْ تنتهِزِ الفرصةَ لتصيرِ رئيسًا من رؤساءِ العربية ، فى البصرةِ ، وغيرِ البصرة ؟

فنظرَ إليهِ الخليلُ فى عِتَابٍ ، وقالَ له :

– يا أَبَا علىّ . لستُ جبانًا ولا ناقِصَ العقل ، ولكنّنِى رأيتُ أستاذِىَ أبا عمرٍو ، وقد كبِرَ فى السِّنّ ، وقدّرتُ له أنهُ علّم النحوَ للناسِ خمسينَ سنة ، ولولاه لما اهتدَيتُ بعَقْلِى إلى ما اهتدَيْتُ إليه ، فكيفَ أسمحُ لنفسى أن أُنكِرَ فضْلَه علىّ ،

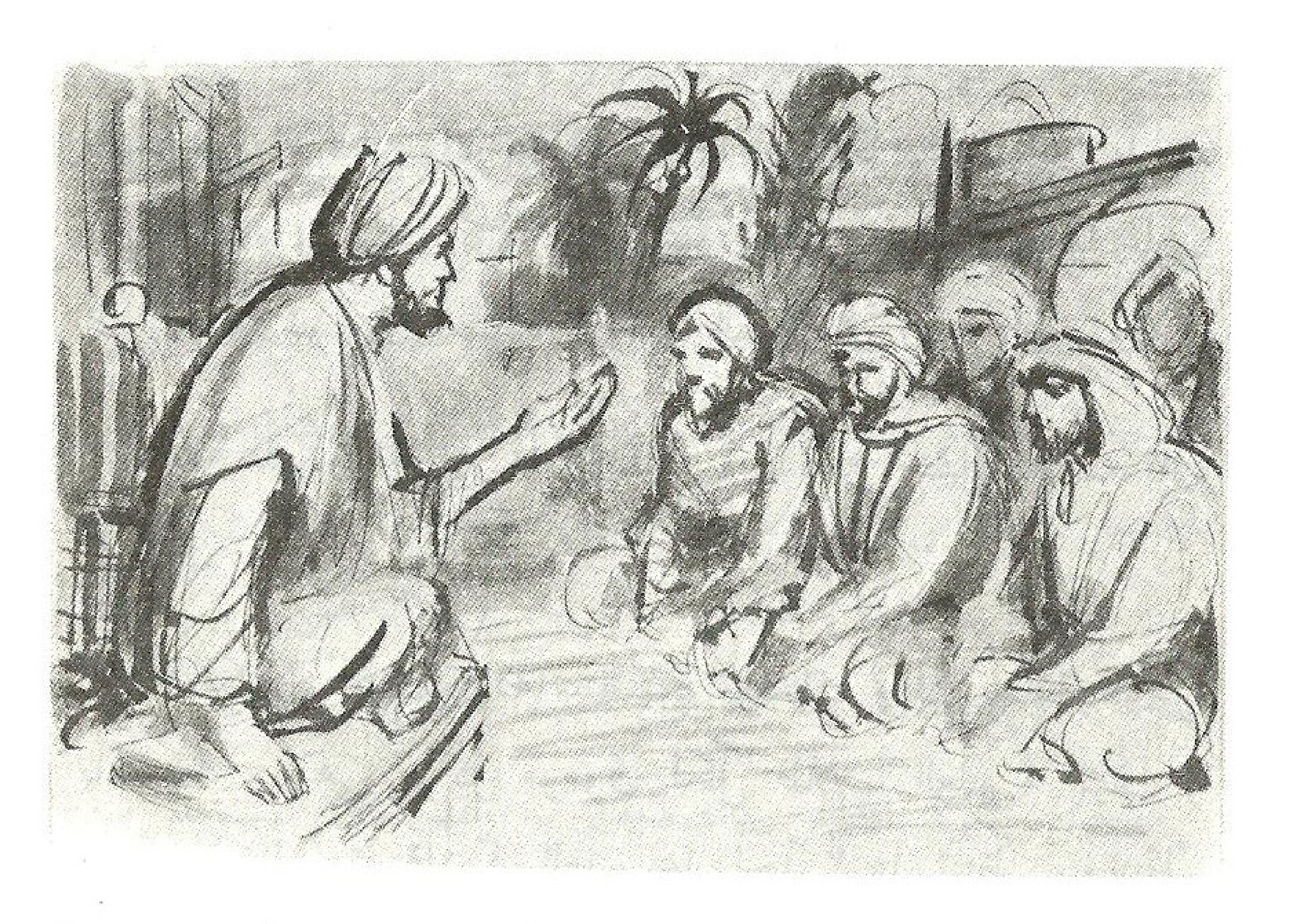
وهو حىّ ، وأفضحَ حدودَ علمِه فى البصرةِ ، وأضيِّعَ حقَّه علينا جميعًا من الإكبارِ والاحترامِ . والله لن أفعلَ ذلكَ أبدًا بأحدٍ من العلماءِ ، أستاذًا كانَ لِى أو غيرَ أستاذ . ولْتعلَمْ يا أبا علىّ أن التلميذَ يساوِى أستاذَه ، زائدًا الفرقَ فى الزّمنِ بينَهما .

وبدَا على وجهِ أبِى علىّ التأثر ، بما قالَه الخليل ، لكنّه قالَ لُه بقلَق :

– لكنْ ، كيفَ إذنْ ستصبحُ معلّما ، ولكَ حلقة درسٍ بالمسجد ، وهى مركزٌ مرموق لكلّ طلابِ العِلْم ؟ كيفَ ، وأنتَ لا تظهِرُ تفوقَك فى العِلْمِ على أَحدٍ ؟ هل تنتظرُ ، وننتظرُ معَك ، إلى أن يودعَ كلُّ علماءِ النحوِ الدُّنيا ؟

فقال لهُ الخليلُ بهدوءٍ شديدٍ :

– يا أبَا على . سأظَلُّ آتِى إلى المسجدِ دائما ، مستمعًا ومتعلِّما للعلمِ ، وطالبًا للمزيدِ من العلمِ فى بيتِى . ويومًا مَا ، سأجعلُ من ساحةِ بيتِى حلْقةَ درسٍ . فمن شاءَ أن يأخذَ عنّى ما أعرفُه من العِلمِ ، فليأتِ إلىّ ، لأعلِّمهُ ما عندِى ، وأتعلَّمَ منه ما عندَه .



علمنى هذا الصبى

وكانَ الخليلُ قد ورِث عن أبيهِ الدارَ التى يعيشُ بها . كانت داراً واسعةً من الحجرِ الأبيضِ ، وكانت غُرَفُ الدارِ ، فى وسَطِ سورٍ يحيطُ بها ، بين ساحَتيْن لهمَا بابانِ : بابٌ للنساءِ ، وبابٌ للرجال . وفى السّاحتيْن كانتْ أشجارٌ قليلةٌ وارفةُ الظِّلّ ، وورِث مع الدارِ نخيلاً بين نخيلِ البصرة ، وبستانًا بين بساتينِها يُروَى بماءِ النهرِ العذب ، وتزرعُ به حبوبٌ تُحصدُ ، وتُجنَى من أشجارِه ثمارُ فاكِهةٍ .

وتزوَّج الخليلُ ، من فتاةٍ سمراءَ جميلةٍ ، اسمُها زينبُ ، وأنجبَ منها ابنًا أسمياه : عبدُ الرحمن . وكانَ قد بلغَ من العمرِ ثلاثينَ عاما ، حين ودّعتْ أمُّه الدنيا ، لاحقةً برحمةِ الله ، وقد اطمأنتْ عليهِ فى رعايةِ زوجتهِ زينب ، أمِّ عبدِ الرحمن .

وكانَ الخليلُ يجلسُ كلَّ صباحٍ ، فى ساحةِ الرجالِ ببيتِه ، وكانَ بابُه مفتوحًا لأىِّ وافِدٍ . وعصرَ يوم ، وهو جالسٌ مع صديقهِ أبى علىّ ، دخلَ عليه رجلٌ من أهلِ البصرةِ ، ومعَه ابنٌ له ، لا يجاوزُ سنَ العاشرةِ إلا بعامٍ أو عاميْن . وحينَ استقر به المجلِسُ ، قالَ للخليلِ :

– يا خليل . أعلمُ أنك أعلَمُ أهلِ البصرة . وهذا ابنى العزيز ، جئتُ به إليك لتُكمِلَ تعليمَه على يديْك ، وتُحسِنَ إرْشادَه ، ولكَ منّى ما تشاءُ من المالِ . ونظرَ الخليلُ إلى الصبىّ . وقالَ له :

– ما اسمُك يا بُنَىّ ؟

فقالَ لهُ الصبىّ بثقةٍ ، وهدُوءٍ :

– إبراهيمُ النظّام .

فقالَ لهُ الخليل :

– اقتربْ مِنّى يا بُنىّ ، فلسوفَ أسألُك لأعرِفَ درجةَ ذكائِك ، وقدرتِك علَى المعرفةِ .

فقالَ لهُ الغلامُ ، بثقةٍ وهدوءٍ ، فى نَبْرَةٍ مُعتزَّةٍ بالنفسِ :

– سلْ ما تشاء .

فقالَ له الخليل :

– يا بُنى . أترَى هذه النخلةَ ، فى ساحتِنا هذِه ؟ صِفْها لِى .

فقالَ لهُ الغلامُ على الفور :

– إن لوصفها ، كما أَراها الآن ، فى وقتِ العصر ، وجهان . فإنْ وصَفْتُ ما يحُسن منها فى عَيْنَىّ بدتْ صالِحة ، وإن وصْفتُ مساوِئَها بدتْ سيّئةً . أتريدُ أن أصِفَها بمدحٍ أمْ بذمّ ؟

ونظَرَ الخليلُ إلى الغلامِ باهتمامٍ ، وقال لهُ مبتسِمًا وراضيا :

– أحسنتَ التفْصيل يا بنى . إن لكَ عقلَ متفلْسِف . وإنى أفضّلُ أن تمدَح نخلتى ، فتحبّبْها إلَىّ .

فنظَرَ إبراهيمُ الصبىُّ إلى النخْلةِ ، وكانتْ محمّلّة بالبلَحِ ، وسامِقةً (مرتفعة) ، وقال :

– إنّها حُلْوُ مُجْتنَاهَا (ثمرها) ، باسِق مُنْتهَاها (عالية

جدا) ، ناضرٌ أَعْلَاها (سعْفها) .

فقال له الخليلُ باسِمًا وراضِيًا :

– فذُمّها لِى يا إبراهيم .

فنظَرَ إبراهيمُ ثانيةً إلى النخْلةِ ، وقالَ :

– إنها صعْبةُ المرتَقَى (عسيرة الصعود) ، بعِيدةُ المُجْتَنَى (الثمر) ، محفوفةٌ بالأذَى (محاطة بالأشواك) .

فنظَرَ الخليلُ إلى الغلامِ فى دهْشة ، وفكّر أنه يحسن من الكلامِ والأدبِ ، ما يعجزُ عنْه العلماءُ ، وما يقصُرُ دونه الغلمانُ فى مِثْلِ سنّه . وأدركَ الخليلُ أنّ هذا الغلامَ سيصبحُ وحدَهُ بحرًا من العلم ينهلُ منهُ العلماءُ . وعندئذٍ قالَ الخليلُ للغلامِ :

– يا إبراهيم . إن أبقاكَ اللهُ على طريقِ العلم ، ستُصبِحَ أولَ مُتفلسِفٍ بينَ المسلمين ، من أئمةِ البيانِ (البلاغة والأدب) وأسيادِ القول (الكلام) .

والتفتَ الخليلُ إلى والدِ إبراهيم ، وقالَ له :

– يا أخِى . خذ ولدَك معَك ، ودعْه فى بحر الدنيا . فنحنُ أحوجُ إلى العِلْمِ مِنه .

وانصرَف الرجل ، مغادرًا لبيتَ الخليل ، سعيدًا بولدِه .

وقالَ الخليلُ لصديقهِ أبى علىّ :

– لقد تعلمتُ يا أبا على من هذا الغلامِ . تعلّمتُ أنّ لكلِّ شيءٍ ، ولكلِّ مسألةٍ ، أكثَرَ منْ وجهٍ واحدٍ ، ولن نصلَ إلى الحقيقةِ إلا بدراسةِ الشيءِ أو المسألةِ ، من كافّةِ الوجوهِ والنواحِى . فتذكرْ ذلكَ يا صديقى ، وذكّرْنى به كلّما نسيتُه ، حتى لا نضِل طريقنا فى بحرِ العِلْمِ الواسعِ .

علامات التشكيل الجديدة

وعصرَ كلّ يوم ، كان طلابُ العلمِ الكبارِ ، يأتُون إلى الخليلِ ، فيعقد لهم حلقةَ درسِه ، فى ساحةِ بيتِه ، وكان بينهم من صارُوا علماءً عظامًا فى لغةِ العربِ وأدبِ العرب ، من أمثال : الأصمعى ، وسيبويْه ، والنضرُ بن شُمَيْل ، وأبو فيْد السّدوسِى ، وعلىّ بنُ نصرٍ ، وغيرُهم كثيرونَ ، ومعهم كان صديقُه الفارسىُّ أبو على ، لا يفتحَ الله له بعِلْمٍ ، ولكنه يفهمُ العلم ، ويحب مجلِسَ الخليلِ العِلمىّ .

وصباحَ يوم ، جاءَ أبُو علىّ إلى صديقِه الخليل ، ليتحدّث معه ، فلم يجدْه فى البيتِ ، وقالت له أمُّ عبد الرحمن :

– لا أدرِى ماذا أصابَ أبا عبد الرحمن . فى كلّ صباح يأخُذُ أوراقَه ، ومِحبرته السوداءَ ، وريشَتَه ، ويغادِرنا ، فلا يعودُ إلينا إلّا مع الليلِ ، والأيامُ أيامُ صيفٍ ، والجوّ شديد الحرارةِ والرّطوبَة .

وقلِقَ أبُو على ، وراحَ يبحثُ عن الخليلِ خارجَ البصرة ، حتى رآه جالسًا فى بساتِين « الخصيب » ، فوقَ حجر ، تحت شجرةٍ ظليلةٍ . واقتربَ أبُو على من الخليلِ فلم ينتبِهْ إليه . كانَ مستغرقًا فيما يكتُبه ، ورآهُ يكتبُ تشكيلاً للحروفِ العربية بطريقةٍ جديدة ، وبحِبْرٍ أسودَ لا أحمَر . كان يشكِّلُ الحروف بألفاتٍ (شُرَط) أفقيةٍ قصيرةٍ فوق الأحرفِ وتحتها ، وبواوَات صغيرةٍ ، ودوائر مفرغةٍ صغيرة ، وسِينات صغيرةٍ فوقها ألفٌ أفقيةٌ قصيرة ، أو واوٌ أفقيةٌ قصيرةٌ ، أو تحتَها ألفٌ أفقيةٌ قصيرةٌ .

وصاحَ أبو علىّ بالخليلِ قائلا :

– عجبًا يا صاحِبى ، ما هذِه الكتابةُ العجيبةُ ؟

فقال له الخليل :

– لقد وجدتُها يا أبا على . فما تَراهُ من ألفاتٍ أو وَاوَاتٍ أو دَوائِرَ أو سِيناتٍ ، هى علاماتُ تشكيلِ جديدةٍ ، ابتكرتُها لِتُكتبَ بالحبرِ الأسودِ نفسه ، وحتى لا تختلِط النقاطُ السوداءُ

للحروفِ بالنقاطِ الحمراء للتشكيل ، وحتى لا أضيِّعَ وقتَ الكاتِبِ فى الكتابة بحبْرين ، وريشتَيْن .

وجلَس أبو على ، وراحَ يقرأُ ما كتبَه الخليلُ ، وكان ما يقرؤُه آيَةً من القرآنِ الكريمِ ، والخليلُ يساعدُه فى القراءةِ ، ومعرفةِ علاماتِ التشكيلِ الجديدة . وأُعجِبَ أبو على بما صنعه الخليلُ للكتابةِ ، فصاحَ قائلا :

- ما أحسنَ ما صنعْتَ للعربيةِ .

وسكتَ أبو على لحظةً ، ثم قالَ بقلق :

- لكنَّ الناس يا أبا عبد الرحمن ، سوفَ يثورُون عليكَ ، لأنَّكَ تقدّم لهم غيرَ ما أَلِفوه . ولسوفَ يقولُ هؤلاء العلماءُ المسجديُّون : إن الخليلَ يُغيِّر كتابةَ العربية ، ويغيِّر كتابةَ القرآنِ .

فقالَ لهُ الخليل :

- أُدرك ذلك يا أبا على ، لكِنّنى سأقُول لهم : إن أبَا الأسودِ الدُّؤلى قد فعلَها قبلِى لتيسيرِ العربيةِ حين نَقطَ حروفًا عربيةً لم تكنْ لها أىّ نُقط ، وحينَ ابتكرَ علاماتٍ للتشكيل بنُقَط حمراءَ . وأنا لم أفعلْ سوى أنْ حوَّلتُ هذه النقطَ الحمراء ، إلى علاماتِ

تشكيلٍ سوداءَ جديدةٍ . ولسوف يتَّبعُ الناسُ طريقتى ، ولو بعد خمسينَ عاما .

وسكت الخليل لحظةً ، ثم قالَ ضاحكًا :

- أتعرِفُ لم ابتكرتُ هذه الطريقة ؟ لقد ابتكرتُها لأنّ زوجتِى أمَّ عبدِ الرحمن طلبتْ منّى أنْ أعلمَها القراءةَ والكتابةَ ، لكنّنى اكتشفتُ أنها لا ترَى اللونَ الأحمرَ ، وترَى النُّقاطَ الحمراءَ نقاطًا سوداءَ ، وتختلطُ عليها نقاطُ الحروفِ بنقاطِ التشكيلِ .

وارتجت البصرةُ لما صنعَه الخليلُ بتشكيلِ الكلماتِ العربيةِ ، وانقسمُوا بينَ متحمِّس لها ومعارضٍ . وانحازَ الشبابُ إلى طريقةِ الخليلِ ، وهاجمَ الكهولُ والشيوخُ طريقةَ الخليلِ . ومن أجلِ هؤلاءِ وهؤلاءِ ، كتَبَ الخليلُ رسالتيْنِ لِيعلمَ الناسَ كيفَ يكتبون العربيةَ كتابةً حسنة ، وبطريقةٍ ميسَّرة ، وبحبر واحد ، هُما : رسَالةُ النّقْط ، ورسالةُ الشّكْل .

الحمار ينتظر

تحتَ شفقٍ أحمرَ ، لشمسٍ غاربةٍ ، كان الخليلُ جالسًا مع أصحابِه وتلاميذه ، فى ساحةِ بيته . ودخلَ عليهم فجأةً ، فلّاحٌ متعجِّلٌ ، ومعه ابنُه ، وقالَ للخليلِ :

– سمعتُ بنبوغِك فى العلمِ ، فجئتُ بابْنى إليكَ ، لِيتعلمَ منك . ولقد جئتُ من سفرٍ بعيد ، والحِمارُ مربوطٌ بحلْقةِ الجدارِ ، خارجَ بيتك ، ينتظرُ عودتَه بنَا إلى قريتِنا .

وابتسمَ الخليلُ وأصحابُه من كلامِ الفلّاح ، وقالَ الخليلُ للرجلِ المتعجِّل :

– وماذا تريد ؟

فقالَ له الفلّاحُ :

– أمامَك ساعةٌ . ساعةٌ واحدة ، لتؤدِّبَ ابْنى فيها ، بشىءٍ من علمِ النجوم ، وتعلِّمَه ما يكفِى من النحوِ ، وتلقِّنه ما يحتاجُ إليهِ من الطبّ ، وتُفهِمهُ فرائضَ الفقهِ . وتذكَّرْ أن الحمارَ على البابِ ، ينتظرُ بفارغِ الصبر ، تعليمَ صغيرى هذَا .

وكتمَ الخليلُ وأصحابُه رغبتَهم فى الضحِك . ونظرَ الخليلُ إلى ابنِ الرجلِ ، فرآه ، فيما قدّر ، معتُوهًا (ناقص العقل) ، فقالَ له الخليلُ :

– اعلم يا بُنىّ أن نجمَ « الثّريا » فى وسَطِ السماءِ ، ويكفيكَ ذلك من معرفةِ علمِ النجوم . واعلم أن الفاعِلَ مرفُوع ، وبهذِهِ المعرفةِ بُدِىءَ النحوُ ، ولعلّه بها يُختم . واعلمْ أنّ الإسهالَ ، مثل

الإمساكِ ، خطر على الجسمِ . وهذا هو جوهرُ علمِ الطب . واعرف أنه إن ماتَ رجلٌ ، وترك ابنيْن ، فمالُه وثروتُه تُقسَّم بينهُما بالتساوِى .

وعندئِذ نهضَ الرجلُ القروِىّ واقفًا ، قائلاً للخليلِ :

– شُكرًا لك يا شيخَ البصرةِ . وجزاؤُك عندِى أنّنى سأحدِّثُ الناسَ أنكَ أعلمُ أهلِ زمانِك ، فقد علّمتَ ولدِى فى دقائِقَ ، ما يعجزُ سِواكَ عن تعليمِه فى سنواتٍ .

ثم قالَ القروى لابنِه :

– قُم يا بنىّ فالحِمارُ ينتظر . ولا تنسَ ما قالَه لك شيخُ البصرة . ولقد صِرنَا أنا وأنت أعلمَ الفلاحِين فى زمانِنا .

وغادرَ القَروِىُّ وابنُه ساحةَ البيتِ ، وركبا حمارَهما ، ومضَيا بِهِ مسرِعيْن ، وراحَ الخليلُ وأصحابُه ينظرُون إلى بعضِهم البعض فى صمتٍ ، ثم انفجروا ضاحِكين .

أصوات الأسواق

فى البصرةِ ، كانَ الأعاجمُ (الفرس) يسخرُون من العربِ ، ويزعمُون أن شعرَ العربِ لا ضوابِطَ له ولا قواعدَ ، مثل شعرِ

الفرسِ . وكان الموسيقيونَ من الملحنينَ والعازفينَ ، يصنعُونَ الألحانَ ، أو يعزِفُون ، بلا أصولٍ ولا قواعدَ . فقدْ كانُوا يعزِفُون بالسماعِ والتّعوّد والتّلقِين ، والتدرُّب على أيدِى شيوخِ العازِفِين والمغنينَ . وعيَّر الكاتبُ « ابنُ المقفع » الخليلَ بهذيْن الأمْرين ، فليس هناك علمٌ لأصولِ وقواعد الشعر العربى ، مثل شعر الفرس ، ولا علم لأصول وقواعد لعزفِ العربِ وألحانِهم وغنائِهم ، مثل عزفِ اليونانيينَ وغنائِهم وألحانِهم .

وشغلَ هذانِ الأمرانِ فكرَ الخليلِ ، إلى أنْ جلسَ مع صاحبه أبِى على ، فى بساتِينِ الخصيبِ . وفجأةً ، صاحَ الخليلُ قائلا :

– وجدتُها . وجدتُ البدايةَ . السكونُ فى الشعرِ هو السكونُ فى الموسيقَى . والسكونُ فى الموسيقى هو السكونُ فى الشعرِ .

فقال أبو على :

– لا أفهمُ . ماذا تقصدُ ؟

فقال له الخليل :

– إنها فكرةٌ ، وعلىَّ أنْ أتاكدَ منها ، من خلالِ أمرين : مقاطعُ الموسيقى ، ومقاطعُ الشعر . وعندئذٍ سوفَ أعرفُ

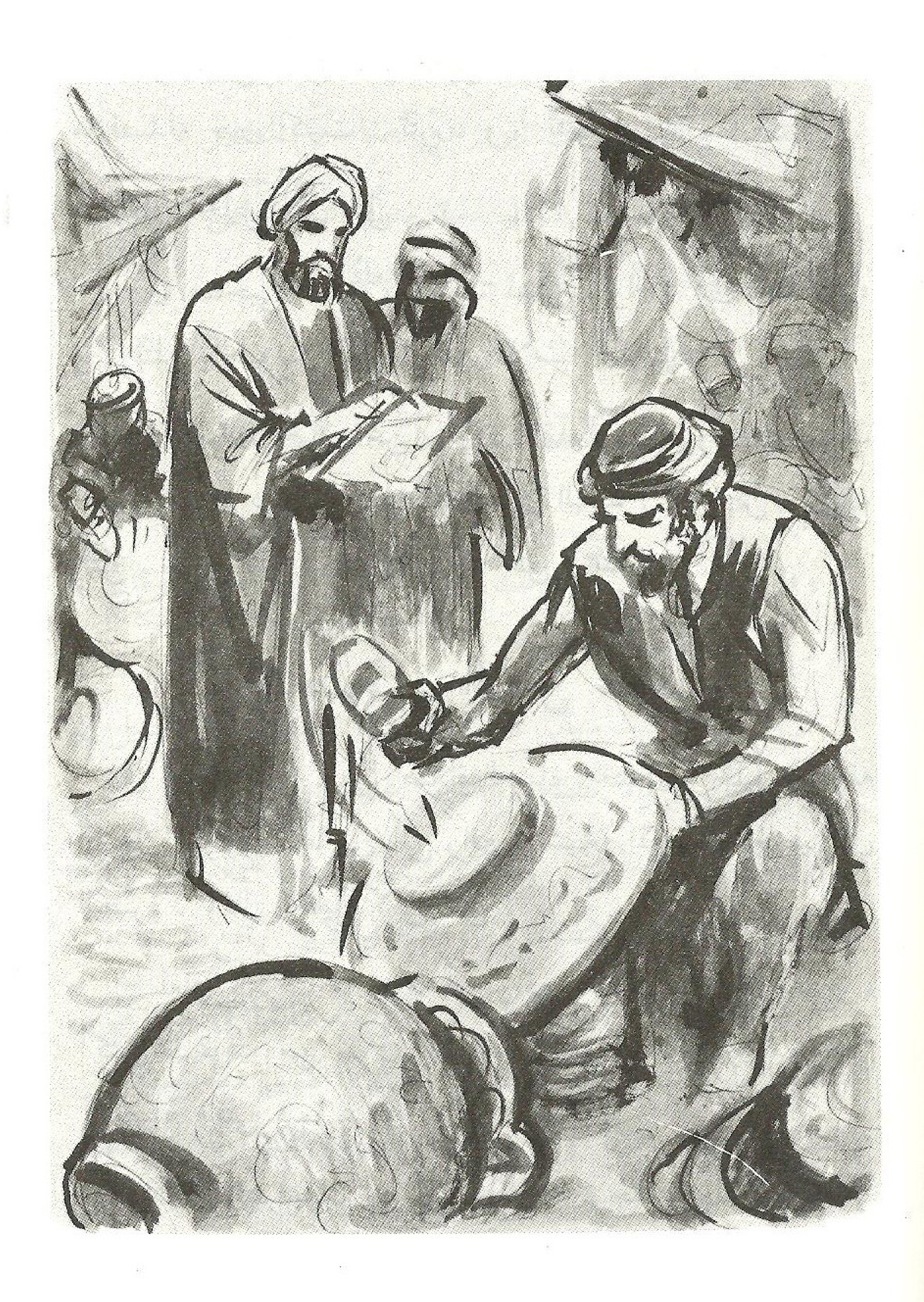
مقاييسَ الشعرِ والموسيقى ، وأضعُ لهما الضوابِطَ والأصُولَ والقَواعدَ .

وافترقَ الصديقانِ ، حين عادَا إلى البصرة ، على موعدٍ بينَهما فى الصباحِ .

فى الصباحِ ، جاءَ أبو علىِّ إلى الخليل ، فذهبَ به الخليلُ إلى سُوقِ الصفَّارين (النحاسين) وكان الطارِقُون للنحاسِ ، يُحدِثُون بمطارِقِهم أصواتًا مدويَّةً ، مزعجةً ورتيبةً ، منفردةً ، وثُنائيةً ، وثلاثيةً ، لكنها كانت تشبهُ فى أذنَىِ الخليلِ أنغامَ الموسيقى العاليةِ ، بقدرِ ما تُفزِعُ سَمْعَ أبى على .

وقادَ الخليلُ صاحبَه أبا على إلى سوقِ القصّارين (غاسِلى الثياب) ، وهم يضربُون الثيابَ ، وهى فى الماءِ فوقَ الأحجارِ ، بمضارِبَ من الجلدِ ، ذاتِ قطعةٍ واحدةٍ من الجلدِ ، أو قطعتين ، أو ثلاثٍ ، حتى يزولَ عنها ما بها من وسخٍ وقذَر . وكان القصّارُون يتناوبُون الضربَ بمضاربِهم تِباعًا ، فتحدِثُ فى وقعِها أصواتًا كأنها رنينٌ مكتومٌ ، لأوتارِ عُود .

ودُهِش أبُو على حين رأى الخليلَ يُسنِدُ ظهرَه إلى جدارٍ ، ويخرج لوحًا يكتبُ عليه ، وهو يحركُ لسانَه وفَمه فى صمتٍ . وخشِى أبُو على أن يرَى الصبيةُ الخليلَ وهو فى هذِه الحال ،



فيسخرُوا منه ، أو يقذِفُوه بالأحجارِ ، فاندفَع نحوه يَجُرُّه جَرًّا ، ويخرُجُ به من سوقِ القصَّارين ، قائلاً له :

– أَجُنِنْتَ ؟ ماذَا تصنع ؟ الصبيةُ ينظرُون إليك .

وحين انفردَا خارجَ السوق ، قالَ له الخليلُ بهدوءٍ :

– كنت أُوازِنُ بين أصواتِ مطارِقِ الصفارين ، وأصواتِ مضارِبِ القصّارينَ . فوجدت الأصواتَ والإيقاعاتِ واحدةً للمطارِقِ والمضارِبِ ، غير أن صوْتَ المطارِقِ ممدودٌ بسبب رنينِ النحاسِ ، وصوتَ المضارِبِ مكتومٌ بسببِ الثيابِ والأحجارِ .

فضحِك أبُو على وقالَ للخليلِ :

– انتقلْنا من أصواتِ الإنسانِ ولغتِه ، إلى أصواتِ النحاسِ والثيابِ ، والمطارِقِ والمضارِب .

وحدّق أبُو على ، فى اللوْحِ الذى خطّ فيه الخليلُ أصوات ما سمِعَه ، فقرأ : تَنْ فتخيلَ طرقةً وحيدةً علَى النحاسِ ، أو ضربةً وحيدةً على الثوبِ ، وقرأَ : تنْ تَنْ . فتخيل ضربتين متتابعتيْنِ ، لِمطرَقةٍ واحدةٍ ، أو لِمضربيْنِ منفردَيْن . وقرأ : تَنْ تَنْ تَنْ ، فتخيلَ ثلاثَ ضرباتٍ متلاحقَةٍ ، لمطرقةٍ واحدة ، أو لثلاثِ مضارِبَ منفرداتٍ . وقال أبُو على للخليلِ :

– أحسُبنى فهمتُ ما قصدْتَه بـ : تَنْ ، لكنّنى لم أفهم ما قصدتَه حين كتبت : تَتَنْ ، و : تَتَتَنْ .

فقال الخليل لأبى على :

– يا صاحبى : تَتَنْ ، صوتٌ لمضرب واحدٍ ذِى جلدتين ، و : تَتَتَنْ ، صوتٌ لمضربٍ ذِى ثلاثِ جِلْداتٍ .

وابتعدَ الصاحبانِ عن سُوقِ القصَّارين ، وهما يسمعانِ أصواتَ مضارِب القصّارين تتراجَعُ فى البعيد : تَنْ ، تَنْ ، تَتَنْ ، تَتَتَنْ . تَنْ . تَتَتَنْ . تَتَتَنْ ، تَنْ ، تَتَنْ ، تَتَتَنْ .

لا تضحك الناس عليك

فى اليومِ التالى ، وإثرَ صلاةِ العشاء ، صحِبَ الخليلُ صديقه أبا على ، وذهبَا معا إلى أَبِى رافِع ، شيخِ المغنينَ والعازِفِينَ فى البصْرةِ . وقالَ الخليلُ لأَبى على :

– لعلّنى أعرِفُ ما يعرفُه أَبى رافعٍ عن الأنغامِ والإيقاعِ ، أكْثرَ مما عرفتُه من سوقِ النحاسِين وسوقِ القصّارين ، حتى لا أضيعَ وقتِى فيما عرفَه غيرِى ، من قبْلِى .

وأُدخِلَ الصديقانِ إلى أَبِى رافِعٍ ، فوجدَا حولَه جماعةً من

أهلِ العزفِ والغِناء ، والكلُّ بين عازِفٍ ومغنٍّ . وحين انتهَوْا من العزْفِ والغناءِ ، قال أبو رافعٍ ضاحكًا للخليلِ :

– خيْرًا . أتريدُ أن تتعلمَ الغناءَ ، أم التوقيعَ على العودِ ؟ أم النقرَ على الدُّفِّ ؟ أم الضربَ على الطبْلة ؟

فقال له الخليل :

– إنما أريدُ أن أتعلّمَ منكَ عِلْمَ الموسيقى ، وقواعدَ هذا العلم .

وفوجِىء الخليلُ بضحِك أبى رافع ومن معه . وقالَ له أبو رافعٍ باستنكارٍ ودهشةٍ :

– ما عَهِدْنا للموسيقَى عِلْما ، ولا قواعدَ . عُدْ يا خليلُ إلى نحوِك ولغتِك ، ولا تُضحِكِ الناسَ عليك .

وألحَّ عليه الخليلُ ، وراحَ يشرحُ له ما سمِعَه فى سوقِ القصّارين ، وسوق الصفّارين ، ثم قالَ لأبِى رافعٍ :

– ولقد سمِعتُ هنا ، الآن ، ما سمِعتُه دائمًا فى السوقيْن . هناكَ دائمًا ثلاثُ نقْراتٍ مختلفاتٍ : النقرةُ الأولى دقةٌ وسكون . والنقرةُ الثانية دقتان وسكُون ، والنقرةُ الثالثةُ ثلاثُ دقاتٍ وسكون . وهذهِ النقراتُ إذا تتابعتْ ، وتداخلَتْ ، كوّنتِ

الموسيقى ، واختلافُ تَتَابُعِها وتداخُلِها هو الذى يولِّد الأنغامَ والألحانَ .

ورجَا الخليل ، كطالبِ علمٍ ، أبا رافعٍ ، أن يدعَه فقطْ يحضرُ مجلسَه كلَّ ليلة ، لعلَّه يضعُ مما يسمعُه قواعِدَ للموسيقى ، فيجعلَ منها عِلمًا يَسهُل تدريسُه ، والتدريبُ عليه ، وأذِن له أبو رافع ، وهو فى عجبٍ من أمرِ هذا اللغوىِّ النحوىِّ .

وتوالتِ الليالى عبْر الأيامِ والأسابيع والشهور ، والخليلُ يذهبُ إلى مجلسِ أبى رافع ، فى كل ليلةٍ ، يكتبُ ويدوِّن ما يسمعُه ، ويشارِكُ أحيانًا فى الغناءِ والإنشاد ، إلى أنْ جاءَ يومٌ اعتكفَ فيه الخليلُ فى بيتِه نحوًا من شهريْن ، ولم يخرُج للناسِ ، إلا وقد وضَع أولَ كتابيْن عربييَّن فى علمِ الموسيقى ، وقواعِدِها ، وأُصولِها ، هما : كتابُ النغم ، وكتابُ الإيقاع .

أبى جُنّ

فى دارِ الخليل ، وفى الساحةِ الخلفيةِ الخاصةِ بالنساء ، كان الخليلُ يتسلّل خِلسةً من أهلِ بيتِه إلى هذه الساحةِ ، بعد أن يرسلَ زوجتَه لتزور أمَّها مع ابنِهما عبدِ الرحمن . وينزلُ بسُلَّم قصيرٍ إلى جوفِ البئرِ الجافِّ ، دونَ أن يعلَمَ بما يفعلُه أحدُ ،

أو يراهُ أحد ، ويأخذُ فى التفكيرِ والكِتابة ، وأحيانًا يحدِّث نفسَه بصوتٍ مرتفعٍ مسموع . وحدثَ أن عادَ ابنُه عبدُ الرحمن ، على غيرِ انتظار إلى ساحةِ النِّساء ، وسمعَ أصواتًا لها صدًى ورنينٌ ، تصدُر من قلبِ البئر ، واتجَه عبد الرحمن خائفًا نحوَ البئر ؛ وهو يسمعُ :

كُرَةٌ ضرِبَتْ بصوالِجَةٍ
فتلقَّفها رجلٌ رجلُ

وأطلّ عبدُ الرحمن فرأى أباهُ الرَّزينَ الوقورَ ، يردّد متغنيًا ، فى جوفِ البئرِ ، وهو يهتزّ مترنحا مع الإيقاعِ :

كُـــرَةٌ ضُرِبَتْ بِصَوَا لِجَـــةٍ
فَتَلَقـــ قفهـــا رَجَـــلٌ رجـــلُ
فَعِلُـــنْ فَعِلُـــنْ فَعِلُـــنْ فَعِلُـــنْ
فَعِلُـــنْ فَعِلُـــنْ فَعِلُـــنْ فَعِلُـــنْ

وشهِق عبدُ الرحمن ، وركضَ مسرعًا إلى خارجِ الدار ، يصرخُ ويصيحُ ، وهو يبكِى بكاءً شديدًا :

— جُنّ أبى . جُنّ أبى . جُنّ أبِى .

وأسرَع الناسُ وراءَ عبدِ الرحمن ، ودخلُوا دارَ الخليل ،



فوجدُوه جالسًا فى قاعِ البئر ، يهتزّ ويترنَّم (يتغنّى) ، غافلاً عنهم ، وعن ضجتِهم ، وقال أحدُ الناس :

– واأسَفًا على الخليلِ . يبدُو أن كثرةَ الذكاءِ تُودِى بصاحِبها إلى الجنُون .

وصاحَ آخرُ بالخليلِ :

– يا أبَا عبدِ الرحمن . اصحَ إلى نفسِك ، وتذكَّرْ ربَّك .

ونظرَ إليهم الخليلُ متعجبًا ، وفهِمَ ما حَدث ، وارتَقَى (صعد) درجاتِ السُّلّمِ ، خارجًا من البئرِ ، وقالَ للناس :

– لا تخافُوا علىّ شرًّا ، فإنى أصنعُ علمًا للشعرِ العربّى . سأسمِّيه : علمُ العروض ، لِنعرفَ موازِينَ لشِعرِنا العربى ، كما يعرفُ الفرسُ موازينَ للشعرِ الفارسىّ .

وعندئذٍ هَدأ الناسُ ، وانصرفُوا من دارِ الخليل ، وهم بين مصدقٍ ومكذِّب ، فلم يروْا من قبلُ عالمًا ، به هذَا القدرُ من الجنُون .

وجه من ذهب

وانقضَى عامانِ على الخليلِ ، وهو منشغلٌ بتقطيعِ نماذِجَ من

الشعرِ العربى ، فى مقاطعَ من حركاتٍ وسكْنات ، يجمعها فى وِحْداتٍ من الموازينِ والمقاييسِ ، ويسمّيه : بحورُ الشّعرِ العربىّ ، ويضمُّ هذا كلَّه ، فى خمسةَ عشرَ بحرًا قياسيًّا للشعرِ العربى ، تتفرعُ عنها فروع ، ويسمِّى هذا كلَّه : علمُ العروض ، ثم يُتبع ذلكَ العلم ، بعلمٍ آخر ، هو : علم القوافى ، الخاصّ بأواخرِ الأبياتِ فى قصائدِ الشعرِ العربى .

وأرسلَ الخليلُ صديقَه أبا علىٍّ ذاتَ صباحٍ ، فراحَ يطوفُ على أهلِ البصرةِ ، فى بيوتِهم ، ومجالسِهم على شواطىءِ النهرِ وجداولِه ، يدعوهم باسمِ الخليل لمقابلتِه عصرًا فى مسجدِ البصْرةِ ، فقد صنعَ الخليلُ للشعرِ العربىِّ علميْن لم يُصنعْ مثلُهما من قبل . وبين المدعوِّين إلى مسجد البصرةِ كان رجلانِ عظيمان ، أحدُهما : ابنُ المقفّع الكاتبُ ، والثانى : أبُو سفيانَ الثورىُّ إمامُ المحدِّثين .

وامتلأَ المسجدُ عن آخرِه بالناسِ ، عُلماء وغير عُلماء ، من الشيوخِ والكهولِ والشبابِ ، وراحَ الخليلُ يشرحُ للناسِ لأول مرةٍ ، على لوحٍ خشبىٍّ كبيرٍ ، موازينَ الشعرِ العربىِّ ، وأبحرَه ، وقوافِيه . وحينَ انتهَى الخليلُ من شرحِه بإيجازٍ وتركيزٍ ، وقدْ رانَ الصمتُ ، وسادَ العَجَبُ ، على وجوه الجميع ، صاحَ

أبُو سفيان الثورىّ قائلاً بانفعالٍ عظيمٍ للناسِ :

– من أرادَ أن ينظرَ إلى وجهٍ من ذهبٍ ، فلينظرْ إلى وجهِ الخليلِ بنِ أحمدَ .

وانفعلَ الناسُ يومَها انفعالاً عظيما ، وراحُوا يعانِقُون الخليلَ ويقبلونَه ، ودموعُ التأثرِ بصنيعِهِ للشعرِ تتحدّر على عيونِهم . وخرجُوا وراءَه يتبعونَه إلى بيتِه ، ولم يدخلْ معهُ بيتَه سوَى تلاميذِه من العلماءِ ، وأساتذته من شيوخِ المسجدِ ، ومعهم كانَ سفيانُ الثورىُّ ، وابنُ المقفع . وقال ابن المقفّعِ مزهوًّا فى ساحةِ دارِ الخليل :

– أنا الذى استفززْتُ عقلَ الخليل واستثرْتُه ، ولولاَى لما وضعَ للموسيقَى العربيةِ كتابيْن ، ولولاى لما وضعَ للشعرِ العربى علميْن . ولا بُدّ له أن يدونهما فى كتابيْن .

وفى تلك الليلة ، سهر العلماء الكبار والصغار ، فى بيت الخليل ، وسَهرَ أهلُ البصرة فى بيوتِهم ومجالسَ سَمَرِهم ، وقد انشغَلُوا بتقطيعِ قصائدَ من الشعرِ العربى ، واكتشافِ أبحُرِها القياسيّة ، مثلما ينشغِلُ الكثيرونَ فى زمانِنا بحلّ جداولِ الكلماتِ المتقاطعةِ . وحين آذنَ الليلُ بالانتهاءِ ، وصاحتْ ديكةُ الصباح ، قُبيل الفجرِ ، سأَل المحدِّث سفيانُ الثورى ، الكاتبَ ابنَ المقفع ،

عن رأيهِ فى الخليلِ ورأيهِ فى نفسِه ، فقال ابنُ المقفع بانبهارٍ :

– ومَنْ مِثْلُ الخليلِ ؟ إنه رجلٌ عقلُه أكبرُ من علمِه . أما أنا ، فعلمِى أكبرُ من عقْلِى . ولَيْتَنِى كنتُ مثلَه .

العلم والمال

بين العلماءِ العرب النابهينَ ، كانَ سيبويه واحدًا من طلابِ العِلْم ، فى حلقة درْس الخليل فى بيتِه ، ومعهُ كانَ من العلماءِ : الأصمعىّ ، والنضرُ بن شُمَيْل ، وأبو فَيْد السّدُوسىّ ، وبتوجيه الخليلِ ، استطاع سيبويه أن يصيرَ شيخًا لعلماءِ النحوِ العربى ، وأن يكتُب ، بتوجيهِ الخليلِ كتابَه « الأم » فى علمِ النحو والتصريفِ ، والمعروفِ باسمِ : الكِتَاب .

وذاتَ يوم ، دخلَ « أبو محمد اليزيدى » على الخليلِ ، فوجَد مجلسَه مزدحِمًا ، والخليلُ جالسٌ فى صدرِ المجلس ، على وِسَادَةٍ صغيرةٍ ، مستندًا بظهرهِ إلى جذعِ نخلةٍ ، ولم يجدْ أبو محمد مكانًا شاغرًا (خاليا) بالقربِ من صديقهِ الخليلِ ، ورآهُ الخليلُ واقفًا ينظرُ حواليْه ، فنادَاه قائلاً :

– تعالَ يا أبَا محمد . ها هُنا . عندِى .

فقال أبو محمد :

– أخافُ أَنْ أضيِّق عليكَ جِلْسَتك .

فقال له الخليلُ ، وقد وقَف ليُجلِسَه بجانبه :

– إن الدّنيا كلَّها تضيقُ عن أن تسَعَ متباغضيْن . (متخاصمين يكره أحدهما الآخر) ولكنَّ شبرًا واحدًا ، لا يضِيقُ عن متحابَّيْن .

وسأله أبو محمدٍ ، وقد استقرّ به المجلسُ :

– جئتُ لأسأَلك سؤالاً : العلمُ أفضَلُ أمِ المالُ ؟ فى رأيِى أن المالَ أفضَلُ من العلمِ ، فالمالُ هو الذِى يسبِّب العلمَ ، ويُثْمِره .

فقال لهُ الخليل :

– كلّا يا أبَا محمد ، فالعلمُ هو الذِى يُثمِرُ المالَ . ولا شىءَ يعدِلُ العلمَ أو يفضُله ، ولا الوُلاةُ يفضلُون العلماءُ .

فقال له أبو محمدٍ اليزيدِىّ :

– فما بالُ العلماء يزدحِمُون على أبوابِ الوُلاة ، ثم ما بالُ الوُلاةِ لا يطرُقون أبوابَ العلماءِ ، بل يدْعُونَهم إليهم بإشارةٍ

منهم ، مع واحدٍ من رجالِهم .

فقال له الخليل :

– يا أبا محمد . لقد عَرف العلماءُ حقَّ الولاةِ وواجبَهم نحوهَم ، فى نصحِهم وهدايتِهم . فسعَى العلماءُ إليهم ليرشِدُوهم ويعلِّموهم . وجهل الولاةُ حاجتَهم إلى العلماءِ ، وحقَّهم عليهم ، وظنّوا ، وهُم فى ظنِّهم مُخطِئون ، أنهم خيرٌ من العلماءِ ، فلم يسعَوْا إليهم . فكانَ فى ذلك خراب لأمرِ كثيرٍ من الولاةِ ، لأنهم لم يسألُوا أهلَ العلم فيما لا يعلمُونه . وقد قالَ سبحانه : ﴿ فاسألُوا أهلَ الذِّكْرِ إن كنتُم لا تعلمُونَ ﴾ .

وكان تلاميذُ الخليلُ ، الجالسونَ حولَه ، يكتبُون على أوراقِ البَرْدِيِّ هذه المحاورَة ، فلم يكنِ العربُ قد عرفُوا بعد صناعةَ الورقِ من الصينيين .

كسرة خبز

وذاتَ نهارٍ ، اجتازَتْ طُرقاتُ البصرةِ ، وقناطرُ جداولِها ، خيولٌ فارسيَّةٌ مُسرَجَة ، عليها فُرسانٌ فى ثياب فارسيةٍ مزخرفةٍ ، زاهيةِ الألوانِ ، يقودُهم دليلٌ من أهلِ البصرة ، يجرى أمامَ الخيل ، إلى بيْتِ الخليل .

وأقبلَ عبد الرحمن قادمًا من البابِ على أبيه ، قائلاً له وهو جالسٌ مع تلاميذِه :

– أميرُ الأهوازِ بعثَ إليك برسُلٍ من كبارِ أصحابِه ، فى كوكبةٍ من الفرسَان .

فلم يُزِدِ الخليل على أن قالَ له ، دونَ أن ينهضَ من مجلسِه :

– دعْهم يأتُون إليْنا .

ودخلَ رسولُ أميرِ الأهوازِ ، وراح ينظرُ حواليْه ، فرأَى دارًا بسيطةً متواضعةً ، وحلقةَ درسٍ ، يحُفُّ بها الوقارُ ، وتحيطُ بها هيْبةُ العلم ، فجلسَ صامِتًا حتى انتهى الدرس ، وعندئذٍ قالَ رسولُ الأميرِ للخليلِ :

– أنا رسولُ الأميرِ : سليمانُ بنُ حبيبٍ المهلَّبىّ ، وهو ، مثلك ، ينتمِى إلى قبيلة الأزْدِ . وقدْ بعثَ إليك بهذَا الصندوقِ ، وفيه مائةُ ألفِ درهم ، كى تجهِّزَ بها نفسَك وأهلَك ، وتأتِى بهم معَك ، ولسوفَ تُقيمُ بقصرِ الأميرِ بالأهوازِ ، وتعلِّم بناتِه وبنيه .

ودَهِش رسولُ الأمير ، وهو يرَى الخليلَ يخرِجُ ، من خزانةٍ بجانبِه ، كِسْرةَ خبزٍ ، ويقولُ له :



– إنها زادِى الوحيدُ فى كلِّ وجبَة ، ولكنّها تكفى لسدِّ رمقى . وما دامَ عندِى منها ، فلستُ بحاجةٍ إلى أميرِك . خذِ الدراهمَ وأعِدْهَا إلى أميرِك ، فببابِه شعراءُ بحاجةٍ إليها . وقُلْ لأميرِك : إن اللهَ لم يخلُقِ الخليلَ إلا لِيُعلِّمَ العلماءَ ، ممن تراهُمْ حولى ، أما صبيتُه فلهُمْ معلمُون غيرِى ، وغيرِ هؤلاءِ العلماءِ من حولِى .

واحمرّ وجهُ رسولِ الأميرِ خجلاً ، وغادرَ دارَ الخليلَ عائدًا بصندوقِ الدراهم ، مع فرسانِه .

وحين خلَت أمُّ عبد الرحمن بزوجِها الخليل ، راحتْ تلومه ، وتعاتِبُه ، وتذكّرُه بما ينقُصُ البيتَ من طعامٍ وكسوةٍ ونفقاتِ جاريةٍ ، فقال لها الخليل :

– لا أنقِصُ قدرَ نفسِى عندَ اللهِ والناسِ . إنى لا أَزْهَدُ فى المالِ ، ولا أكرهُ النِّعْمة ، ولَا أقبَلُ المال إلا خالصًا من العبوديةِ ، ولنْ أبيعَ عزَّةِ نفسِى ، وعقلِى ، وعلمِى ، بمالِ الأرضِ كلِّها .

وارتفعتْ منزلةُ الخليل إثرَ هذا الموقفِ العظيم ، بين أهلِ البصرة . وخجِلَ أميرُ الأهوازِ من نفسِه ، فبعثَ إليه بالمائةِ ألفِ درهم خالصةٍ لوجهِ العلم . وسارعَ الخليلُ بحجز ما يلزمُ بيته لعامٍ واحدٍ ، ووزّع بقيَّةَ المال على تلاميذه المغتربينَ عن ديارِهم ، وعلى طلابِ العلمِ بالبصرةِ وفقرائِها . وظلّ على عاداتِه الأُولى ، يُعطِى الفقراءَ أكثرَ ما يصلُ إلى يدِه ، ويدعُ رزقَ الغد ، لعالمِ الغيب وحدَه .

سنوات الجدب

على البصرةِ ، توالتْ سَنَواتُ جَدْب (جفاف) قلّت فيها

مياهُ الرَّى ، وندرَ التَّمْر ، وعزَّتِ الفواكِهُ والحبوبُ ، واشتدّ الحالُ على أهلِ البصرة ، وكثر الموتُ جوعًا وعطَشًا ، وتفشَّت (انتشرت) الأوبئة ، وأسرعَ كلُّ قادرٍ إلى الهجرةِ من البصرةِ .

وشاعتِ الأخبارُ فى بلادِ فارس بما يلاقِيه أهلُ البصرةِ من جوعٍ وعطش ، وقيل لِلَّيث بنِ المظفَّرِ بنِ سيّار ، أميرِ خُراسَان ، إن الخليلَ يوشِكُ على الموتِ جوعًا وعطَشًا ، وأسرعَ الليثُ بإرسالِ المؤنِ من طعامٍ ومياهٍ إلى أهلِ البصرة ، ومعَها كانتْ دعوةٌ للخليلِ ، ليقيمَ مع الليثِ فى قصرِه بخُراسَان ، وقال رسولُ الأميرِ الليثِ للخليلِ :

– إن أميرَنا لا يريدُ إلا صداقتَك وعلمَك ، ولا يريدُك لنفسِه ولا لِوَلَدِه ، ولكَ أنْ تعودَ إلى البصرةِ ، حين تشاء ، فى أىِّ وقتٍ تريدُه .

وقبِلَ الخليلُ دعوةَ أميرِ خُراسَانَ . وأعدَّ نفسَه وأهلَه للرحيلِ عن البصرة ، وكانتْ دماءُ العافيةِ قد دبّتْ فى أجسادِ أهلِ البصرة ، فخرجتِ البصرةُ بأسرِها فى وَدَاعِ الخليل ، فقد تكونُ رحلتُه رحلةً بلا عوْدَةٍ . وقال الخليلُ لأهلِ البصرة :

– واللهِ يا أهلَ البصْرة ، لوْ وجدتُ فى بيتى ، فى كلِّ يوم ، كِسْرَات خبزٍ ، لى ولأهلى ، ما فارقتُكم ، وأنتُم أولَى منّى بما

بعثَ بهِ الأميرُ إلىّ من مالٍ وزادٍ .

وبكَى أهلُ البصرةِ لفراقِ الخليل ، وحزنِ العلماءُ والمساكينُ لرحيلِه ، وتبعُوا موكِبَه ، إلى أن غابَتْ بهِ الخيلُ عن عيونِهم فى بلادِ فارس . ولم يرَ أحدٌ من أهلِ البصرةِ دموعَ الخليل ، وهو ينظرُ وراءَه ، وهى تنسكِبُ (تنحدر) على خدَّيْه ولحيتِه ، وقد تقدَّم به العُمْر .

للغة جُذور

واستقبلَ الأميرُ الليْثُ عبقرِيَّ البصرةَ بالحفاوةِ ، وسعِد به الخليلُ حين وجَده كاتبًا وأديبًا ، وبليغًا . وعرَفه ، مع الأيامِ ، تقيًّا صالحا ، مُحِبًّا لرعيتِه . وعندئذٍ عادَ لعقلِ الخليلِ فكرُه المبدِع . قال الخليلُ لليثِ ذاتَ نهارٍ ، وهما جالسانِ ، فى شرفةٍ ، تطلُّ على بستانٍ :

– اسمعْ عنى أيُّها الأمير : إننى أفكِّرُ فى عملٍ ، أحصرُ به كلامَ العربِ جميعًا ، فلا تشذُّ عنه كلمةٌ فى هذا العمَل .

وأخذَ الخليلُ يشرَح لليثِ فكرتَه ، فالحروفُ العربيةُ تسعةٌ وعشرونَ حرفًا ، ومنْها تتكونُ الكلماتُ العربية : الثنائيةُ ،

والثلاثيةُ ، والرباعيةُ ، والخماسيةُ ، والسداسيةُ . ومن تركيبِ أحرفِ العربية مع بعضِها البعْض ، يمكنُ الوصول إلى سائر الاحتمالاتِ الممكنةِ ، لتكوينِ الكلماتِ العربية ، ثم ننظرُ فيها واحدًا واحدًا ، ونختبرُ : أيها موجودٌ فى كلماتِ العرب ، وأيُّها غيرُ موجود ، ونُحدِّدُ لها معنَاها أو معانيها ، كما عرفَتِ العربِ هذه المعانِى ، لكُلِّ كلمةٍ .

وسكت الخليل لحظةً ، فقد كانَ يشعرُ بالحمى تسرِى فى جسِده ، لِكبَرِ سنّه ، ولتغييرِه لجوِّ بلادِه . وهَمّ الأميرُ أن يطلبَ منه أن يستريحَ الآنَ من التفكيرِ ، لكنَّ الخليلَ قال له :

– لقد اكتشفتُ ، بعد طولِ تفكيرٍ واستعراضٍ لكلامِ العرب ، أن كلّ الكلمات لهَا جذورٌ ثلاثيةٌ ، أو رُباعية ، وما عدَاها من الحروفِ فهو زائِدٌ عليها . وسأضعَ لذلكَ كلِّه مقاييسَ بإذنِ الله . ايذنْ لى لأستريحَ ، وائتنى بطبيبِك .

وفزعِ الأميرُ الليثُ ، وصاحَ :

– لن تصابَ بكَ العربيةُ الآن ، فهى أحوجُ ما تكونُ إليكَ فى هذه الأيام .

وصحِبَه الليث بنفسِه إلى سريرِه ، وسهِرَ بجانبه مع الطبيب ، يعالجانِه ويمرضانِه .

أول معجم عربى

شُفِى الخليلُ من مرضِه ، وراح يخطّطُ لمشروعِه العلمىِّ الكبيرِ . بدأ بترتيبِ الحروفِ العربيةِ ترتيبًا صوْتِيًّا ، حسبَ مخارجِ هذه الحروفِ ، محتذيًا ترتيبَ الحروفِ فى اللغةِ السّنسكْريتيّة (إحدى لغات الهند) ، التى كان الأميرُ الليثُ يعرفُها ، فبدأ بحروفِ الحَلْقِ : ع . ح . خ . غ ، فالحروف اللهَوِيّة (الصادرة عن اللهاة) : ق . ك . وتلَاها بالحروفِ الأخرى حسَب مخارجِها ، وهى : ش . ص . ض . س . ر . ط . د . ت . ظ . ذ . ث . ز . ل . ن . ف . ب . م ، ثم حروف : و . ا . ى ، وهو الترتيبُ السِّنسِكريتى ، مع شىءٍ من التعديل .

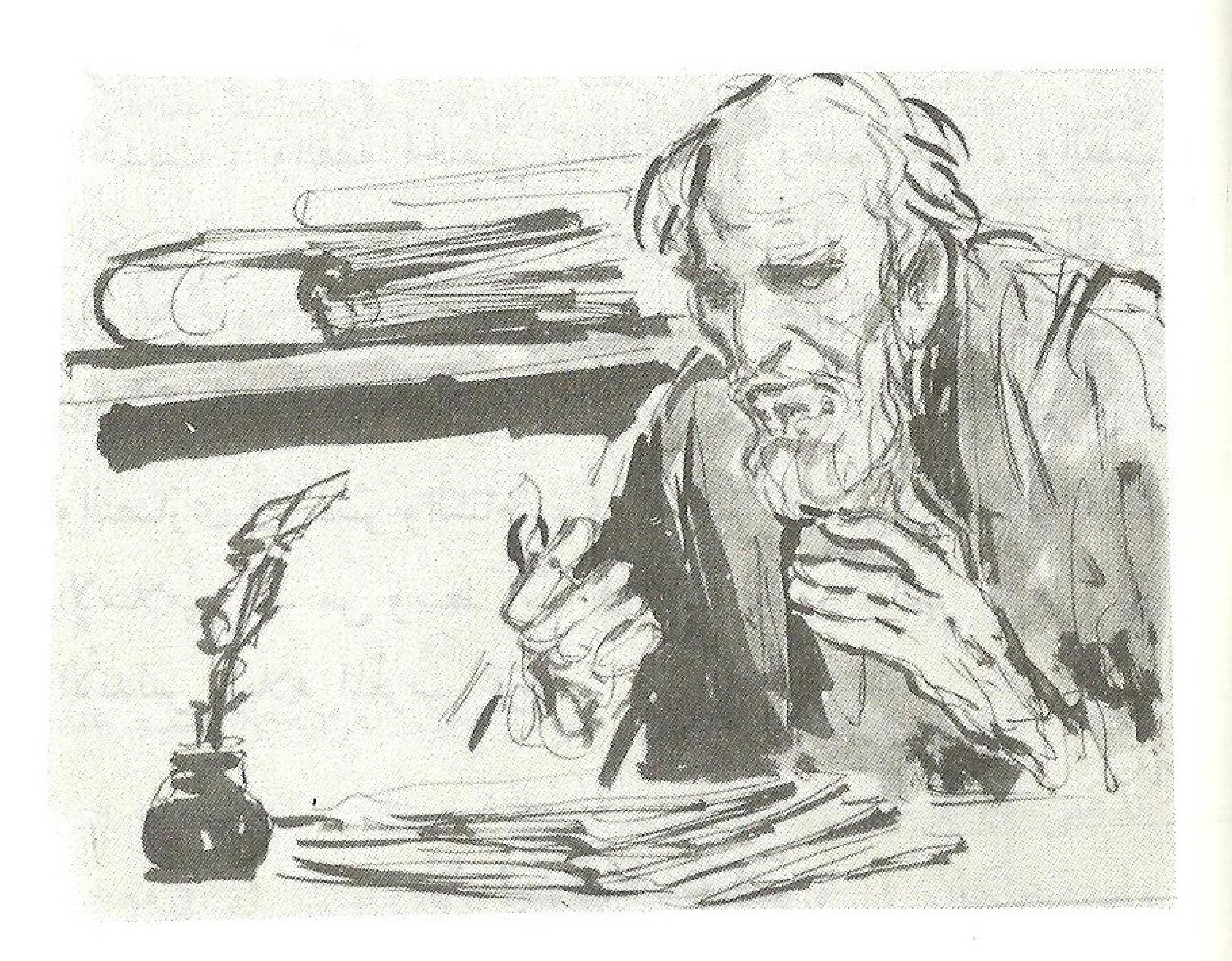
وارتكزَ الخليلُ ، فى تبويبِ معجمِه ، حسَب الحرفِ الأوسَطِ فى الأفعالِ العربية ، ووفْقَ ترتيبِه الصوتِّى ، وموردًا كلَّ الأفعالِ التى بها هذا الحرف مثل : سَعِل ، ونعِم ، و : نعَب ، و : رعَد .. وهكذا ، وكلَّ المعانى المتعدّدةَ لهذهِ الأفعالِ ، كما وردتْ فى كلامِ العرب ، والأسماءِ ومعانِيها المشتقّة منها ، مثل : ساعِل ، ونعِيم ، ونعَّاب ، وغير المشتقة ، مثل : النعْمة ، والسُّعال ، واجتمعَ إليهِ ، فى العملِ معه ، ومعَ الأميرِ بهذا

المعجمِ المبتكرِ فى العربيةِ ، علماءُ لغةٍ ، وكُتّابٌ ، ورواةٌ من رواةِ العربيةِ الأعرابِ . وكان هذا المعجمُ معروفًا بين كلِّ المساعدِين للخليلِ فى إعداده ، فى فريقِ عملٍ لغوىٍّ كبيرٍ ، باسْمِ : العيْن ، ربما لبدئِه بها . وقطعَ الخليلُ شوْطًا كبيرًا فى إعدادِ هذَا المُعجم ، لكنه أحسَّ بأنّه قد كبرَ فى السِّنّ ، وراحتْ أطرافُه ترتعشُ ، كلّما أمسكَ بريشتِه ، ليغمسَها فى المِحْبَرةِ السوداءِ ، وصارَ يشعرُ بأن عقلَه لم يعدْ يمتلِكُ قوةَ التركيزِ التى كانتْ له ، فأدركَ أن أيامَه فى الدُّنيا باتتْ معدودةَ ، وأنه يحِنُّ إلى البصرةِ ، ويتُوق (يرغب) إلى حجِّ بيتِ الله .

واستأذَن الخليلُ الليثَ فى الرحيلِ ، تاركًا له ، ولفريقِ العملِ ، مهمةَ إنجاز بقيةِ المعجم ، فى ضوءِ المنهجِ الذى وضعَه له . فأذِن له بالرحيل ، وزوَّده بالمالِ ، والخيلِ ، والفرسانِ ، وودعه فى موكبٍ حافلٍ ، عادَ به إلى البصْرة ، ولم يكدِ الخليل يستقرُّ بها شهورًا ، حتى غادرَها لأداءِ فريضةِ الحجِّ ، ثم عادَ إلى البصرةِ ، وكان قد بلغَ من العمرِ خمسةً وسبعينَ عاما .

عصر الخليل

عاشَ « الخليلُ بنُ أحمدَ بنُ عمرٍو بنُ تميمٍ الفَراهيدِىُّ » فى



القرنِ الثانى الهجرى ، الثامنِ الميلادى ، وعاشَ خمسينَ عاما من عمرِه ، فى عهدِ الدولةِ الأموية ، وخمسةً وعشرين عامًا فى مطلعِ الدولةِ العباسية .

وشهِدَ الخليلُ خلالَ حياتِه الصِّراعاتِ القبليّةِ والمذهبيةِ الداميةِ ، بين الأمويينَ والعباسيين والعَلَويينَ والخوارج . وشهدَ فى أواخرِ عمرِه تفاعُلَ الثقافةِ العربيةِ البدويةِ ، مع الثقافاتِ الإغريقيةِ والفارسيةِ والسِّنْسكْريتيّة الوافدة ، وشهدَ جهودَ النقَلةِ من المترجمين الذينَ أقبلُوا على نقل أصُول هذه الثقافاتِ إلى

العربيةِ . وشهدَ الإبداعاتِ العربيةِ الجديدةِ فى علوم الأنساب ، والحديث ، والفقه الحنفىِّ والمالكىّ ، وعلم الهيئة ، والطبِّ والكيمياءِ . وشهد جدالَ ومُناظراتِ دعَاة المذاهبِ والفرق الإسلامية فى البصرةِ . وشهد فقد العرب لما كان لهم من نفوذٍ غالبٍ فى الدولةِ الأموية ، ومشاركةَ الفرسِ فى العراقِ ، والنصارَى فى مصرَ والشامِ ، فى الحكمِ العباسى . وكان الحكمُ الإسلامىُّ يمتدُّ من وسَط آسْيا فى بلادِ ما وراءَ النهرِ شرقا ، إلى الأندلس وبلاد المغرب غربا .

لا تبكوا علىّ

وظهرَ يومٍ ، كان الخليلُ يدخُل مسجِدَ البصرة ، شاردًا ، ومطرِقا ، يفكرُ فى أمرٍ لا يعلمُه أحدٌ ، وكانتْ تجرى بمسجدِ البصرة عمرةٌ لتجديدِه ، وعثُرتْ قدمُ الخليلِ بخشَبة ملقاةٍ فى صحنِ المسجدِ ، فاندفعَ به جسدُه إلى الأمامِ ، فارتطمتْ جبهتُه بأحدِ أعمدةِ المسجدِ الرخاميّة ، وانشجَّ رأسٌ كان يشعُّ بالذكاءِ ، وتدحرَج الخليلُ ، فى سقوطِه ، مضرّجا بالدماءِ . وأسرَع الناسُ إليه ، فوجدُوه يبتسمُ ، ويقولُ لهم :

— لا تبكُوا علَىّ . فواللهِ ما فعلْتُ فِعلاً أخافُ اللهَ منه على

نفسِى . ولو بقِىَ عندِى فضلٌ من معرِفة ، يريدُهُ اللهُ للناسِ ، لأمَدَّ فى عمرِى .

وبكتِ البصرةُ كلُّها وهى تشيِّعُه إلى مثواه الأخيرِ بالبصرةِ ، واهتزّت لموته ديارُ العربِ كلها . وكانت وفاته عامَ مائةٍ وخمسةٍ وسبعينَ هجريةٍ ، سبعمائةٍ وواحدٍ وتسعينٍ ميلادية .

●

عن الخليلِ بنِ أحمدَ كتبتِ الموسوعاتُ العربيةُ ، كتبَ عنه الذّهَبى فى « سيَرِ النبلاء » ، وابن النديمِ فى « الفهرست » ، وابن خِلّكان فى « وفَيَاتُ الأعيان » ، وياقُوت فى « معجمُ الأدباء » ، والقِفطى فى « أنباءُ الرُّواة » ، والنوويّ فى « تهذيبُ الأسماءِ واللغات » ، وابنُ الأثير فى « اللُّباب » ، والأنبارِىُّ فى « نزهَةُ الألبّا » والسيُوطِى فى « بُغيةُ الوُعاة » ، والزَبْيدِىُّ فى « المختصرُ من تاريخِ اللغويينَ والنحويّين » ، وابنُ الجَوْزِىّ فى « طبقاتُ القُرّاء » ، والسِّيرافِى فى « أخبارُ النحويين البصريّين » ، و « المنتخبُ من كِتَاب ذيْل المذَيِّل » للطبرى ، وابنُ حجر فى « تهذيبُ التهذيبِ » ، وابنُ المعتز فى « طبقاتُ الشعراءِ » ، وابن كثير فى « البداية » وابنُ الأثيرِ فى « الكاملُ فى التاريخ » ، وطاش كُبرى زاده فى « مِفتاحُ السعادَة » ، وابنُ

شهبة فى « طبقاتُ النحويينَ واللغويين » ، واليافعِىُّ فى « مرآةُ الجنان » ، وحاجِى خليفة فى « كشْفُ الظنون » ، والخوانْسَارِىُّ فى « روضاتُ الجنانِ » ، والمامْقانى فى « تنقيحُ المقالِ » ، والبغدادىُّ فى « إيضاحُ المكنونِ » ، والعامِلىُّ فى « أعيانُ الشيعة » ، كما كُتِبَتْ عنه دراسات فى مجلاتِ : الأزهرُ ، والرسالةُ ، والاعتدالُ ، ولغةُ العربِ ، والمجمعُ العلمىُّ العربىّ ، والمعلمُ الجديد . ووُضِعَ عن الخليل كتابانِ هما : « قصةُ عبقرى » ليوسفَ العش ، و « الخليلُ بنُ أحمد » لعبدِ الحفيظِ أبو السعود . وكَتبتْ عنهُ الموسوعاتُ العالميةُ الأمريكيةُ والانجليزيَّة والفرنسيةُ والألمانيةُ .

●

فى عامِ مائةٍ هجريةٍ ، سبعمائةٍ وثمانيةَ عشرَ ميلادية ، وُلِد الخليلُ ابن أحمدَ الفراهيدى ، وفى عامِ ألفين وثمانيةَ عشرَ ميلادية ، ستكونُ ذكَرى مرورِ ثلاثةَ عشرَ قرْنًا من الزمان على : أبو العربية ، وأبو الشعرِ العربىّ ، وأبو المعاجمِ العربية : الخليلُ ابنُ أحمد ، ولعلّ العرب قاطبةً من الخليج إلى المحيطِ ، يحتفلون بهذه الذكرى ، فى مِهْرَجَانٍ قومىٍّ ، نادرِ المثال ، تحتفلُ به الأمةُ العربيةُ بأسرِها ، بالبحوثِ والدراساتِ ، وإحياءِ تراثِه اللغوى ،

من حملةِ اللغةِ وحماتِها ، من العربِ والمستشرقِين ، فقد كانَ الخليلُ ، ولا يزالُ ، طليعةَ العباقِرَةِ العرب الخالِدِين ، بين العلماء العرب أجمعين .

رقم الإيداع

٩٦ / ١٣٤٨٣

مطابع الأهرام التجارية - قليوب

علماء العرب ٢٩

الخليل

الخليل بن أحمد الفراهيدى عالم عربي مسلم، عاش فى القرن الثامن الميلادى. يعده العرب معلماً لعلماء العربية. ابتكر لأول مرة علامات التشكيل للحروف العربية، ووضع لأول مرة قواعد لأنغام الموسيقى وإيقاعاتها. واكتشف لأول مرة موازين الشعر العربى وأبحره وقوافيه، وابتكر فكرة الجذور للكلمات العربية ووضع فى ضوئها أول معجم عربى. بعنوان: العين. إنها قصة تثير الفخار، يقرؤها الصغار والكبار.

صدر من هذه السلسلة:

١ - ابن النفيس
٢ - ابن الهيثم
٣ - البيرونى
٤ - جابر بن حيان
٥ - ابن البيطار
٦ - ابن بطوطة
٧ - ابن سينا
٨ - الفارابى
٩ - الخوارزمى
١٠ - الإدريسى
١١ - الدميرى
١٢ - ابن رشد
١٣ - ابن ماجد
١٤ - القزوينى
١٥ - ابن يونس
١٦ - الخازن
١٧ - الجاحظ
١٨ - ابن خلدون
١٩ - الزهراوى
٢٠ - الانطاكى
٢١ - ابن العوّام
٢٢ - الطوسى
٢٣ - الكاشى
٢٤ - الوزّان
٢٥ - ابن الرزّاز
٢٦ - تقى الدين
٢٧ - الرّازى
٢٨ - الكندى
٢٩ - الخليل

مركز الاهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الاهرام

التوزيع فى الداخل والخارج: وكالة الاهرام للتوزيع
ش الجلاء - القاهرة

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر